أول خطوة

لقد قرأت فلسفة المونتيسوري وتعلمتها عن ظهر قلب ولكنني لم أدرسها ولم أستكشف أيًّا من أنشطتها. في الليل، بعدما نام «آدم»، جلست بجواره والهاتف المحمول في يدي، كتبت في محرك البحث، باللغة الإنجليزية، «أنشطة لطفل عمره 18 شهرًا». ظهرت أمامي روابط عديدة، تصفحتها كلها وانتعشت!

وجدت أمهات كثيرات نشيطات مبدعات مبتكرات يقدمن أنشطة غاية في الجمال والروعة لأطفالهن وبدأت أدون ملاحظاتي وأجهز قائمة بالمشتريات التي أحتاجها لأبدأ في تقديم الأنشطة لـ«آدم». اشتريت لوبيا جافة وعدسًا أصفر وأرزًا وفاصوليا وخلطتهم في علبة محكمة الغلق. اشتريت مكاييل الدقيق التي تشبه الجاروف المتدرج في الحجم، واشتريت صينية مكسرات مقسمة إلى أربعة أقسام.

كان «آدم» يراقبني بحماس. جلست أمامه. فتحت علبة البقوليات والحبوب. أمسكت بجاروف كبير. أخذت فيه بعض مكونات من العلبة. نقلتهم بحرص إلى قسم من أقسام الصينية. كررت النقل إلى كل أقسام الصينية. ثم أخذت كل قسم وأفرغته في العلبة. بعد أن

انتهيت أعطيت «آدم» الجاروف وابتسمت. أخذه وانهمك في النقل والصب. كان هذا أول نشاط مونتيسوري أقدمه لطفلي.

حتى هذا الوقت، لم أستعد أيًّا من مهاراتي أو قدراتي، سواء الكتابة أو التدريس. لكن كان الله معي.

قررت أن أدرس المونتيسوري حق دراسة وأن أعلم ابني بنفسي. لن يجد في أي حضانة الرعاية التي سأوفرها له. حرصت على أن تكون حياته غنية بمصادر الحب غير المشروط من الأهل والأصدقاء. حرصت على أن أكون متفرغة له. حرص هو على مكافأتي من آن لآخر وكأنه يقدم لي الوقود لأستمر.

بدأت دراسة دبلومة المونتيسوري من الميلاد حتى ثلاث سنوات وبدأت أنجح في اختيار الأنشطة المناسبة لهذا الكائن الذي يصور أنفاسي بعينيه في كل لحظة وكل حركة.

على مدى السنوات المئة الماضية لم تجتذب أي من أساليب التربية والتعليم اهتمامًا كما اجتذب نهج «ماريا مونتيسوري»، هذه الطريقة التربوية التي تحيط بها هالة من الغموض والعديد من التساؤلات. ماذا يعني عندما يشير أحدهم إلى نهج المونتيسوري؟ كيف تختلف هذه الطريقة عن طرق التربية والتعليم التقليدية؟ وماذا يحدث عند استخدام أساليب وأدوات المونتيسوري مع الأطفال في أول ست سنوات؟

سوف أبدأ كلامي عن المونتيسوري بمقدمة قصيرة عن شخصية «ماريا مونتيسوري»، الطبيبة الإيطالية التي تحولت إلى مربية!

قضت الطبيبة سنوات عديدة في مراقبة، والعمل مع الأطفال متأثرةً بالعديد من الأطباء والباحثين في مجال الطفولة والتربية، ثم وضعت أفكارها ونظرياتها، وقامت بتصنيع أدوات تعليمية خاصة بها.

بدءًا من بداية القرن العشرين، ولمدة 50 عامًا، وضعت «ماريا مونتيسوري» برنامجها الخاص لتشجيع وتحفيز الأطفال لتعلم المهارات التي يحتاجونها ليصبحوا، في نهاية المطاف، مسؤولين، منتجين، مستقلين، ومحبين للبيئة والسلام.

«Casa Dei Bambini» هذا هو اسم أول مركز طبقت فيه «ماريا مونتيسوري» نظرياتها في التربية وهو يعني «بيت الأطفال». هذا هو مربط الفرس ومفتاح فلسفة المونتيسوري!

الطفل ليس صفحة بيضاء يكتبها الكبار، وهو ليس عجينة لينة نشكلها كما نشاء، الطفل منذ ميلاده إنسان يحتاج مساحة من الحرية والأمان ليختار ويقرر ويفكر وينمو، ولتزدهر شخصيته وتبرز موهبته.